المحاضرة الثامنة: المنهج التأويلي

لقد احتلت الهرمنيوطيقا حيزاً كبيراً من الدراسات الأدبية واللسانيات وباقي العلوم الإنسانية، حيث أصبحت بمثابة مبحث فلسفي لدراسة عمليات الفهم وتأويل النصوصعموما والنصوص الأدبية خصوصا، والكتابات التي تعنى بدراسة الإنسان ونشاطه الاجتماعي والنفسي والتاريخي.

أولا: مفهوم الهرمنيوطيقا (التأويل) لغةً واصطلاحاً

إن كلمة التأويل في اللغة العربية مأخوذة من المصدر (أوّل) وهو الرجوع، أو من (أيالة) وهي السياسة. والمصدر (أوّل) أي فسر، بمعنى تأويل الكلام، أي تفسيره وبيان معناه.

أما معنى الهرمنيوطيقا (التأويل) اصطلاحاً فهو: " إعطاء معنى لحدث أو لقول أو لنص لا يبدو فيه المعنى واضحاً "،و تأويل الرؤيا أي تفسيره، كقوله تعالى: (ربِّ قد أتيتني من الملك وعَلمتني من تأويل الأحاديث) (سورة يوسف: 101) وجمع تأويل هي تأويلات.

وتجدر الإشارة إلى الفرق بين التأويل والتفسير، فالتأويل هو نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل، لولاه ما ترك ظاهر اللفظ ،ومعنى هذا أن المراد هو تأويل حمل اللفظ على المعنى المجازي أو الاستعاري أو الكنائي.أما التفسير فهو قصر اللفظ على معناه الحقيقي. وتناول الأصبهاني الفرق بين التأويل والتفسير حيث قال: " إن التفسير أعم من التأويل، والتفسير يستعمل في الألفاظ ،والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا، التفسير يستعمل في الكتب الإلهية وغيرها ،والتأويل يستعمل في الكتب الإلهية فقط". بينما يرى الماتريدي أن التفسير هو القطع بالمعنى بدليل، والتأويل هو ترجيح أحد الاحتمالات.

أما في الغرب فمصطلح الهرمنيوطيقا (التأويل) يأخذ مساراً آخر يكون أبعد قليلاً من معناه في اللغة العربية، إذ أشتق من الفعل اليوناني (Hermeneuin) ويعني التفسير(Hermeneuia) ، و هذه الكلمة مرتبطة بالإله (هرمس) رسول الآلهة لدى اليونان ، الذي وُكّل إليه نقل الرسائل بين آلهة أولمب والبشر وتوجّب على هرمس أن يكون ملماً بلغة الآلهة ، فضلاً عن لغة البشر الذين وضعت لهم الرسالة .

ثانيا: نبذة تاريخية عن الهرمنيوطيقا

الهرمنيوطيقا كوسيلة لفهم وقراءة النصوص الأدبية والتاريخية والملحمية قد ظهرت في العصر اليوناني، فكانت لدى افلاطون تستخدم للغة العادية، حيث ارتبطت اللفظة بمسحة الكلام المقدس أو الفرائض (كلام الملوك والمبشرين أو المنذرين)، كما وردت في محاورة أيون. وفي كتاب (هرمينياس) لأرسطو ، استخدمت بالمعنى المعرفي الدقيق للفظة (هرمينياس) ، لأنه لم يفكر إلا في المعنى المنطقي للملفوظ ، عندما درس القول الجازم، و في عصر الهليني المتأخر وردت لفظة (هرمنيوطيقا) للإشارة إلى تفسير العالم ،واسم " هرمس " إشارة إلى" المؤول " أو" المترجم". ولقد تطورت الهرمنيوطيقا في العصور الوسطى بعد ظهور إشكاليات في قراءة الكتاب المقدس، فارتبط (فن التأويل) باللاهوت المسيحي والكتاب المقدس، لأن بداية التقاء الهرمنيوطيقا بالفكر المسيحي تعود إلى بداية إعادة كتابة الإنجيل كنص سلطوي معتمد ووثيقة مقدسة ، اذ كان من الواضح مثلا أن "متى " كان يمارس في كتابة "انجيله " عملية " القراءة والتفسير " لإنجيل مرقص، وهذا ليجعله متلائما مع بناءات اللاهوتية الخاصة، وأن الأناجيل الأربعة كانت أيضا تفسيرات مختلفة لحياة وآلام المسيح. من هنا نجد أن الهرمنيوطيقا بقيت في العصر المسيحي الأول كما كانت تستخدم عند اليونان للقراءة والتفسير، بيد أنها تطورت مع بداية الصراع الفكري المسيحي وظهور البروتستانتية على يد " مارتن لوثر " و" جان كالفن " ، حيث أُنيطت مهام جديدة للهرمنيوطيقا عدا القراءة والتفسير، ومنها عملية الفهم أي تغيرت المهمة من عملية قراءة النص إلى عملية فهم النص، لأن البروتستانت حاولوا التخلص من سلطة الكنيسة عبر تفسير الكتاب المقدس من غير الرجوع إلى الكنيسة.

إن التفاسير المتعددة قد تؤدي إلى سوء فهم متعدد، لذا أصبح من الضروري إيجاد مبادئ أو قوانين للتفسير، كي يكون التفسير معقولاً ومنطقياً وصحيحاً. ومن هنا لعبت الهرمنيوطيقا دوراً مهماً كوسيلة أساسية لفهم النصوص الدينية، فمهمتها في البداية كانت مقتصرة على تفسير النصوص الدينية، وتوضيح ما فيها من غموض، ومن ثمّ طرأ تغيير في مسارين على مسألة الهرمنيوطيقا إبّان عهد الفيلسوف الألماني شلايرماخر (1768 –1834) ، ففي المسار الأول

خرجت الهرمنيوطيقا من إطارها الديني وقراءة وفهم النصوص الدينية، وأصبحت تهتم بالنصوص الدينية والدنيوية مثل النصوص القانونية والتاريخية، أما التغيير في المسار الثاني فتمثلت بأنها أصبحت لها مبادئ واستقلالية، وبذلك صارت فلسفة قائمة بنفسها. حيث أصبحت الهرمنيوطيقا مبحثاً فلسفياً قائماً بذاته منذ عهد الفيلسوف شلايرماخر ولحد الآن ، على الرغم من كل التغييرات التي طرأت عليها خلال مسارها التاريخي على يد الفلاسفة الذين تناولوها في كتاباتهم.

ثالثا: أهم فلاسفة التأويلية

1 ــ فريدريك شلايرماخر: (1768 – 1834)

يعتبر شلايرماخر أول فيلسوف حاول وضع مبادئ وأسس للهرمنيوطيقا، وهو الذي أخرج الهرمنيوطيقا من إطارها الديني، واهتم بها كمنهج وأداة للإشتغال على النصوص، مهما كان نوع النص، وإيضاح بنيتها الداخلية والوصفية،ووظيفتها المعمارية والمعرفية،والبحث عن الحقائق المضمرة فيها،وربما المطموسة لاعتبارات تاريخية أو دينية. وقد أكد شلايرماخر على الجانب اللغوي والتاريخي للنص.

ورأى شلايرماخر "أن سوء فهم خطاب معين هو الذي يولد الحاجة الى الفهم". وقد أكد هذ الأخير على فهم (قصد) المؤلف في النص، وماذا أراد أن يقول؟ فكل نص حسب رأيه مبني على فكرة داخلية كامنة فيه، ولكي نصل إلى هذه الفكرة الداخلية، فلابد أن يكون هناك وسط ، وهذا الوسط هو اللغة، والتركيبة النحوية والفيلولوجية للنص، ولإتمام عملية الفهم فلابد من تحليل المصطلحات والعبارات اللغوية المستعملة،إذ صرّح شلايرماخر بأنه لكي نصل الى قصد المؤلف وماذا أراد أن يقول، فلابد من العمل على جانبين بالتوازي وهما: الحالة النفسية للكاتب أثناء كتابة النص، والظروف التاريخية التي كتب فيها النص.

2 ــ فلهلم دلتاي: (1833-1911)

طور دلتاي الهرمنيوطيقا نحو العلوم الإنسانية على أساس التأويل، وقد حاول تأسيس منهج للعلوم الإنسانية يترافق مع منهج العلوم الطبيعية (التجريبية)، ووجد دلتاي أن كل معرفة يكتسبها الإنسان

تكون عن طريق التجربة،بيد أن التجربة وحدها لا تكفي. وميّز دلتاي بين العلوم الطبيعية (التجريبية) والعلوم الإنسانية (علوم الروح) ، وذلك في طريقة اكتساب هذه العلوم، حيث اعتبر أن (التفسير) ميدانه العلوم الطبيعية، في حين أن (الفهم) ميدانه العلوم الإنسانية، كما يظهر ذلك في مقولته الشهيرة: " ليس بإمكاننا أن نشرح الإنسان، وإنما نحن نفسر ونشرح الطبيعة، ونفهم ونؤول الإنسان "، بيد أن الإشكالية الأساسية قد بقيت كما كانت، وهي كيف نحصل على تأويل صحيح أو كيف نفهم الحقيقة؟

يؤكد دلتاي على أنه بواسطة اللغةالتي هي وسيط بين المؤلف والقارئ ،يمكن الوصول الى المعرفة الكاملة، وذلك عبر فهم وتأويل هذه اللغة، وبمساعدة معرفة الحالة النفسية للكاتب، مع معرفة الظروف التاريخية التي كتب فيها النص.

3 ـمارتن هايدغر: (1889 – 1976)

إن مصطلح دازاين (Dasein) (الوجود هنا) الذي هو من ابتكار مارتن هايدغر قد غيّر مسار الهرمنيوطيقا، حيث انتقلت من مبحث الإبستمولوجيا الى اعتباره فرعاً من الأنطولوجيا العامة، أي أن فلسفته كانت على العكس من فلسفة شلايرماخر، وأدى هذا الأمر إلى تغيير السؤال من: كيف نفهم؟ إلى: كيف نوجد؟

وقد أصبحت عملية الفهم عند هايدغر مسألة انطولوجية مرتبطة مباشرة بوجود الانسان، أي قدر المرء على إدراك ممكنات الوجود ضمن سياق العالم الحياتي الذي وجد فيه،إذ أن " الفهم ليس شيئا نمتلكه بل هو شيء نُكوّنه" ، أي أن الفهم شكل من أشكال الوجود في العالم(Dasein) ، وبهذا دحّض هايدغر فكرة الذات – الموضوع التي كانت سائدة، وأكد على أن الذات بوجودها في العالم هو تفهم الموضوع، وليس هناك موضوع منفصل عن الذات، لأنه مسألة آنية.

4 ــ جورج هانز غادامير: (1900 – 2002)

كان عمل غادامير استمرار لعمل أستاذه هايدغر، ولكنه اختلف مع أستاذه في المنهج، وفي كتابه:(الحقيقة والمنهج) يشير غادامير إلى أن المنهج ليس طريقاً إلى الحقيقة، بل حسب رأيه أن المنهج يتعامل مع الحقيقة على أسس موضوعية سلفاً ، بهذا تكون الحقيقة معروفة مسبقاً، غير أن هذا لا يتم مع العلوم الإنسانية، لأن تطبيق المنطق الاستقرائي الذي يستخدم في العلوم التجريبية لا يمكن استخدامه في العلوم الإنسانية.

أما المسألة الأخرى التي أثارها غادامير فهي (الأحكام المسبقة) و (المعرفة المكتسبة على مدى حياة الفرد)، والتي دعا دلتاي الى التخلص منها أثناء محاولة فهم نص ما، حيث يؤكد غادامير على أن عملية الفهم تبدأ أولاً من بوابة الذات، وتلعب الأحكام المسبقة دوراً أساسياً فيها. وقد ابتكر غادامير مصطلح " انصهار الآفاق " ،ويعني أن أي عملية فهم لابد أن تُبنى على الهرمنيوطيقا ،وألّا تحصر نفسها في آفاق الماضي " التاريخ" ، أي تاريخ انبثاق النص، بل هي حوار بين آفاق المؤول الحاضر وآفاق الماضي للنص، ولا يتم الحوار الا بعد انصهار الآفاق (الماضي والحاضر)، وبذلك يتحقق الفهم.